المدينة الحلم

من

من مراكش فى الجنوب، استمع إلى نداء الدار البيضاء المدينة العالميـة كازابلانكا، فلا يمكننى إلا أن ألبى النداء. فى صباح يوم جمعة جميل مفعم بروائـح البرتقال وبأصوات العصافير تحلق فى فضـاء مئذنة جامع الكتبية، أتوجه إلى محطة قطارات مراكش وأحجز لنفسى مقعدا بقطار الساعة التاسعة المتجه إلى الدار البيضاء.

تخفت أصوات موسـيقى الدقة المراكشـية وصور ومشـاهد سـاحة جامـع الفنا، وأنا أنظر عبر زجاج نافـذة القطار إلى شمس المغرب التى اجتذبت إليها أدباء ورسـامين ورحالة أجانب مثل بول بولز، تينيسي ويليامز، دولا كـروا، ماتيس، إلياس كانيتى، وخوان جويتيسـولو، وجان جنييه.

هنـا أرض المغـرب التـى انتقلـت إليها قبائـل عربية مـع الفتح الإسـلامي الذى امتد إلى ثلاثـين عاما منذ عام ٢٢ هـ «٦٤٠م» ؛ وفى القـرن الثانى الهجرى عمد هشـام بن عبد الملك الأمـوى إلى نقل كثير من القبائل القيسـية المسـتقرة بالشـام إلى بلاد المغرب بهدف تحقيق تـوازن بين العناصر العربيـة والبربرية، والعمل على دمجهم سـويا فى الإطار العربى الإسـلامى، وبهدف الحد من سيطرة القبائل اليمنية التى مثلت الغالبية من عرب بلاد المغرب. وفى منتصف القرن الخامس

الهجرى بدأت الهجـرة الهلالية التى حركتهـا الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر.

مـن هـذه الأرض خرج الرحالـة «ابـن بطوطة» المولـود فى طنجة عـام ١٣٠٤ هـ، الذى ذكـر فى رحلته أن أهل مدينـة ظفار فى جنوب الجزيرة العربية هم أشـبه الناس بأهل المغرب وبعاداتهم. وفى كتاب «إلى من رحلة سـرية» تحدث الألمانى «هانز هولفويتز» عن شـىء يشبه ما تحدث عنه «ابن بطوطة» قبل سـتة قرون، مشـيرا إلى وجود تشابه بين ألحان وأغانى الجنوب العربى وبين الموسيقى البربرية التى تمكن «كارل لخمـان» من تسـجيلها لدي قبائل افريقيا الشـمالية: فالأغانى والألحان التى وجدتها فى موسـيقى اليمنيين توجد أيضا فى الموسيقى البربرية. لكن العامل الحاسم فى وجود علاقة بين موسيقى الفريقين يقوم على الطريقة التى تنشـد بها الأغانى، وهو عامل يزداد قوة بفضل فردية اللحن الموسـيقى والتشـابه فى الألحان كلها وهو تشـابه بارز كل البروز.

يضيف الألمانى «هولفويتز»: الموسيقى ليست هى الدليل الوحيد على وجود علاقة بـين قبائل البربر وأهل الجنـوب العربى، فمن الحقائق البـارزة أن هنـاك أبنية تشـبه تلك التـى تقوم فى الجنـوب العربى موجودة فى أعالى الأطلسى وتحمل المظاهر المعمارية نفسها.

فى مقال للكاتب الفلسـطينى «محمد الأسـعد» بصحيفة الحياة: من ملحوظات الرحالة الألمانى هولفويتز تتضح سمات أساسـية، فبالإضافة

إلى العـادات التـى لاحظهـا «ابن بطوطـة»، تظهر الموسـيقى والطرز المعماريـة، ولا ندرى أى جوانب أخرى يمكن أن تكشـف عنها بحوث جـادة تختلف عـن ملحوظات الرحالـة العابرة، من حيـث إن حدود الهويـة العربية كانت قد وصلت إلى مداها السـكانى والجغرافى منذ أزمان مغرقة فى القدم.

لكن المفارقة التى تجتذب نظر الكاتب «محمد الأسعد» هى أن انسياب المجموعات البشـرية بين المشـرق العربى والمغـرب العربى وبالعكس قديما كان أكثر سـهولة ويسرا مما هو عليه فى العصور الحديثة حيث بدت الأرض والمسافات فى القديم أصغر مما هى عليه فى الزمن الراهن، زمن المواصلات السريعة وثورة الاتصالات والمعلومات.

ربما لهذا السـبب عقدت مجلة «العربى» فـى الكويت ندوة بعنوان «حوار المشـارقة والمغاربـة» من أجل إثـراء الثقافة العربية، شـارك فيها باحثون وكتاب من المشـرق والمغـرب العربيين، فى محاولة منهم للإجابة عن أسـئلة تدور حول الإشكالية التاريخية والثقافية القائمة بين المشرق والمغرب.

ربما لصعوبة انسـياب المجموعات البشـرية بين المشـرق العربى والمغرب العربى فى الزمن الراهن، سعت ندوة «حوار المشارقة والمغاربة» إلى إقامة حوار على أسـس صحيحة، تبرز فيه المساهمات التى قام بها المشـارقة والمغاربة، بغية إثراء الثقافة العربية، على أساس من التنوع

لا الاختلاف، والتكامل لا التناقض، وبغية التحام الخبرات البشرية المعرفية ضمن النسيج الثقافى الواحد للعالم العربى؟.

يتوقف القطار فى محطة قطارات الدار البيضاء المدينة العالمية كازابلانكا، فأسرع بالنزول إلى الرصيف ومنه إلى فضاء الميدان. أحدق فى السماء وفى عين شمس منتصف النهار، فلا أجد غير صقر أسود اللون يحلق فى سماء المدينة البيضاء. أحدق فى وجوه العابرين فأجدهم يمشون الهوينى يلفهم صمت، ونظرات عيونهم تشى بشىء من حزن.

أشير إلى إحدى سيارات الأجرة فتتوقف أمامى سيارة صغيرة إيطالية الصنع. أنظر فى عين السائق العجوز وأقول: باب مراكش. يومئ السائق برأسه، فأفتح باب السيارة واتخذ مقعدى إلى جواره، وقبل أن أتم إغلاق الباب كانت السيارة قد انطلقت بى بعيدا وسط سيل من السيارات الإيطالية والفرنسية الصغيرة.

عيناى تعانق الشوارع والبنايات والبشر الذين يسيرون فرادى وفى شىء من التباطؤ. يلفت نظرى متجر صغير عليه لافتة تحمل اسم «المجذوب». استيقظ عصفور نائم فى قفص صدرى من زمن ورف بجناحيه ثم عاد إلى نومه ثانية. تذكرت «ثريا المجذوب» زميلة معهد البوليتيكنيك فى لندن التى قطعت علاقتى بها فى صباح يوم غائم بسبب الإرث الصعيدى الذى أحمله على ظهرى ولم تفلح لندن فى أن تنسينى إياه أو أن تعالجنى منه طيلة أربع سنوات.

توقفت سيارة الأجرة وترجلت منها أمام باب مراكش. قذفت بنفسى

فى شـــوارع الدار البيضاء ووجهتى مسجد الحسن الثانى الذى شاهدته من نافذة الطائرة التى أقلتنى من القاهرة إلى مطار محمد الخامس الدولى بالـــدار البيضاء منذ أيام، قبل أن تهبط بـــى الطائرة لكى تقلنى طائرة أصغر منها إلى مراكش.

أركـــض فى اتجاه البحـــر المحيط، الذى يربض فوقـــه بقوة وجلال وجمال مسجد الحسن الثانى، التحفة المعمارية الإسلامية، علنى ألحق صلاة الجمعة به. تتراجع البنايات من خلفى وأجدنى وجها لوجه أمام المســجد الكبير الجليـــل الجميل، واحداً ضمن آلاف يغذون الســـير فى اتجاهه طلبا لسماع الخطبة وللصلاة جماعة.